المعنى عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء فكرة التواصل

أ.م.د. صلاح كاظم هادي

يرتبط تحديد الحيز المعرفي للسيميائيات داخل المفهوم العام للمعرفة السيميائية، بإيجاد منظور نظري موحد تنصهر في بوتقته جل التباينات الشكلية لتمثلية العلامات ودلالاتها في إطار عملية التواصل ، إذ تحظى كل علامة من العلامات على اختلاف حقل الممارسة المرتبط بها بالسنن المستند إلى مستوى الفهم والإفهام . و إن رهان السيميائيات على المظهر الموضوعي في الأنساق الدالة لا يعني أنها تؤلف مركز اهتماماتها ؛ فالسيميائيات تروم بناء أنموذج نظري يقولب الوقائع الدالة ويمنحها شكلا موحدا، وذلك عن طريق إنشاء خطاب نظري خالص تستطيع عن طريقه الحديث عن موضوع العلامة . والواقع أن أكثر المفاهيم تجريدا هي أكثرها تطبيقا، لأن استهداف بناء أية نظرية قابلة للتطبيق متوقف على تطويرها باستقلالية عن تطبيقاتها. بيد أننا لا يمكن أن نتصور وجود سيميائيات عامة إلا بوجود سيميائيات خاصة حقيقية مهمتها إثراء الأولى بالمناهج الخاصة وتوسيع دائرة اهتماماتها؛ أي إمدادها بديمومة الحياة العلمية عبر إبراز بواطن الخصوصيات الإبستمولوجية التي تتقاطع وتتكامل في سبيل إعادة بناء أو توسيع أو تصحيح الأنموذج المعلن سلفا.

وتعد سيمياء التواصل مساراً مهماً من مسارات علم العلامات ، لصفته الشمولية في النظر إلى السيموسيز أو عملية التدليل و فضائها ، فضلاً عن اتساع مساحة البحث لتصل إلى المتلقي وتأويله ، ومواصفات المرسلة والعلامة والشفرة والمرجع والقناة ، ويمتد ذلك البحث إلى مجال النشاط الوظيفي لأركانها ، بحسب خطاطة رومان ياكوبسن (١) . وإن دراسة المعنى عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني في ضوء فكرة التواصل تستدعي النظر إلى نتاجه الفكري بوصفه جزءاً من المنجز المعرفي العربي الإسلامي ، بل يعد من أفضل ثماره ، وشكلاً من أشكال التفاعل والتحاور الفكري في مرحلة النضج العلمي في مجال الدراسة النقدية ، ولاسيما في أفقها الدلالي .

وقد استعمل الإنسان العلامة بوصفها جزءاً رئيساً من عملية التواصل بين أبناء جنسه ، والعلامة اللسانية مجموعة أصوات كوّنت اللغة ، أو مجموع اللغات البشرية ، ((وأول التصويتات النداء ' فإنه بهذا ينتبه من يلتمس تفهيمه أنه هو المقصود بالتفهيم لا سواه ، وذلك حينما يقتصر في الدلالة على ما في ضميره بالإشارة إلى المحسوسات ، ثم من بعد ذلك يستعمل تصويتات مختلفة يدل بواحدٍ واحدٍ منها على واحدٍ واحدٍ ممّا يدل عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته فيجعل لكل مشار إليه محدود تصويتاً ما محدوداً لا يستعمل ذلك التصويت في غيره))(٢)، فتحدث حينئذ الأسماء التي تنوب عن مسمياتها في غيابها وحضورها ، وهذا يعني إن وجودا لفظيا استوعب الوجودين الذهني والموضوعي، فحدث اختزال وجودي وإنابة دلالية ((ويدل على ذلك أن هذه الأسماء إنما احتيج إليها ليقع بها التعريف ، ويصحّ بها الإخبار عن غيبة المسميات ، لأن الإشارة تتعذر إليه كذا فأُقيم الاسم عند ذلك مقام الإشارة عند الحضور ، فكما تحسن الإشارة إذا حضر المشار إليه لوقوع الفائدة به للمشير والمشار إليه ، فكذلك يحسن الاسم لهذا الغرض عند غيبة المسمّى ، أو لكون المسمّى لا يظهر للحواس)) (٣). أن المسموعات ترتسم في المصورة وتُختزن أيضا في المتخيلة ، وكذلك صور الأجسام ، فالصورة اللفظية (الاسم) وصورة المسمّى موجودتان في الذهن ، وترتسمان على المصورة في حالة استدعاء أحدهما الآخر أما المفاهيم المجردة التي يحصلها العقل فتختزن في المتذكرة أو الحافظة ، وعند اكتمال هذه الموجودات يستغني الإنسان بها عن حضور المسمّى لاجتماع صور الموضوعات ، والمعاني المجردة مع الألفاظ الدالة عليها في الذهن ، وهذا

يعني أن النطق نشاط موضوعه جوهر نفسي (٤) ، وهذا الفهم نفسه توصل إليه دي سوسور إذ قال:((كلا طريق الإشارة سايكولوجي))(٥)، ولا نستطيع تجسيد ذلك إلّا باللغة ، أي بمجموعة من الكلمات . ولا يعني ذلك أن المعاني الحسية تتساوى مع المعاني العقلية المجردة إذ ليس للأخيرة صور في المتخيلة ، إنما يكون الموضوع فيها ناتجاً عن علاقة أو فكرة ذهنية صرفة ، فتبقى الدلالة الحسية هي مبادئ العلوم ومنها يُرتقى إلى غيرها(٦) ، ولكن هذه المعاني تتساوى من ناحية خفائها والاستعانة بالدال لظهورها إلى حيّز الوجود الخارجي والتواصل (٧) ، ويقتضي ذلك أن تكون المعاني أعراضاً ، إذ إنها ذوات وإن قوامها يكون في موضوعات هي الدوال عليها وهكذا يمكن أن تبدو اللغة بالنسبة للعالم موضوعاً ومحمولاً في آنٍ واحد ، ولكن يبقى المتحصل من الدوال هو الصور الذهنية أو المعاني الخفية (٨) ، وإن كل معنى لا يمكن أن يعبر عنه بدال ، فلا سبيل إلى معرفته (٩) ، ويقتضي ذلك أن تكون المعاني أعراضاً ، وهذا يعني أن جميع المعلومات التي يستقبلها الإنسان ، يفسرها ويفصّلها بحسب نظامه الدلالي ، وإن عدنا إلى أساس المعرفة لديه ، نجد أنه يترجم الوجود بتفاصيله بحسب منطقه الدلالي ، فالمحسوسات الخارجية هي الكيانات التي تستقبلها حواسه ، وهي المرجع والموضوع الذي تحوّل إلى صور ذهنية (مدلولات) حددّها بدوال تمييزا لها ولأجزائها ، وهذا يعني أن هناك ((محسوسات وبالجملة موجودات خارج النفس ثم معقولات و متصورات ومتخيلات في النفس وألفاظ وخطوطا))(١٠)، وإن هذه العملية إنما جاءت بعد نمو ، إذ سبقها - بلا شك - ميل الإنسان بفطرته إلى البحث عن طريقة للإبلاغ عن الموجودات الحسية فهو يحتاج - ضمن واقعه الاجتماعي - إلى ((أن يعرّف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره))(١١) ، فيفزع عندئذٍ إلى طرائق الإبلاغ الإشاري ، بأن يستعمل الإشارة في الدلالة على ما كان يريد ، ممّن يلتمس تفهيمه إذا كان من يلتمس تفهيمه مبصرا إشارته ، ثم يفزع إلى التصويت. عند غيبة المسمّى ، أو لكون المسمّى لا يظهر للحواس)) (١٢) ويذكر أبو حامد الغزالي في بيانه لرتبة الألفاظ من مراتب الوجود أن ((للشيء وجوداً في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة))(١٣) ، ويرى أنه ((لا معنى للعلم إلّا مثال يحصل في النفس مطابق لما هو مثال له في الحس وهو المعلوم ، وما لم يظهر هذا الأثر في النفس لا ينتظم لفظ يدل به على ذلك الأثر))(١٤) و إن الفهم والإفهام هو الغاية التي يسعى إليها الإنسان ، وأما اللغة ((فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم)) (١٥) ، أي أنها مادة تؤدي دورها في عملية التواصل ، ولذلك تفرض سمة التواصل نفسها على الدلالة على أنها شرط لتحققها ، ولذلك قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني : ((الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إيّاه))(١٦) ، وإذا عدنا إلى الأساس المعرفي الذي انبثقت عنه النصوص الأخيرة ، نجده عند الجاحظ الذي رأى أن ((مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغتَ الافهام وأوضحتَ عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع))(١٧). وهذا ما يتفق مع مفهوم التواصل في الاصطلاح على عملية نقل الأفكار والتجارب، وتبادل المعارف والمشاعر بين الذوات والأفراد والجماعات. وقد يكون هذا التواصل ذاتيا شخصيا أو تواصلا غيريا. وقد ينبني على الموافقة أو على المعارضة والاختلاف. ويفترض التواصل أيضا – باعتباره نقلا وإعلاما- مرسلا ورسالة ومتقبلا وشفرة ، يتفق على تسنينها وتشفيرها كل من المتكلم والمستقبل أو المستمع ، وسياقا مرجعيا ومقصدية الرسالة (١٨) ، و يؤكد دي سوسور دائما على الوظيفة الاجتماعية والتواصلية للغة بوصفها الغرض الأساس من اختراع اللغة. ولكنه أقام هذا التمييز لعزل العناصر الخارجية للغة بهدف دراسة اللغة دراسة علمية صارمة بوصفها نظاماً مستقلاً لاستنباط قواعد تصلح للتطبيق على دراسة أية لغة ، فهو لم يفصل بين فكرتي إلغاء إحالية اللغة والتفريق بين اللغة والكلام ، إذ قال ((إذا تركنا التعريف العقيم للكلمات فإننا نجد ضمن الظاهرة العامة للسان جزئي هما : اللغة والكلام . فاللغة هي ظاهرة اللسان مطروحاً منها الكلام ، فهي المجموع الكلي للعادات اللغوية التي تساعد الفرد على أن يفهم غيره ويفهمه

غيره ، ولكن هذا التعريف يترك اللغة خارج السياق الاجتماعي ، ويجعل منها شيئاً مصطنعاً لأنها لا تضم إلّا الجانب الفردي من كيانها ، إن تحقيق كيان اللغة يتطلب وجود مجتمع من المتكلمين ، فاللغة لا وجود لها خارج الإطار الاجتماعي)) (١٩) ، وإن الطبيعة التواصلية لغالبية الأنساق الدالة، دفعت ثلة من السيميائيين إلى الربط((بين السيميائيات بوصفها علما يدرس أنساق العلامات الدالة وبين وظيفتها التواصلية مقتدين بما قررته اللسانيات من أن التواصل هو عصب الوظيفة اللسانية ومن ثمة فهو أساس الخطاب)) (٢٠) ، وقد استثمر المفكرون المعتزلة مثل هذه المفاهيم قبل أكثر من ألف ومئتي عام ، أي أن إعمام المفاهيم اللسانية للتواصل على مجموع الأنساق الدالة أدى إلى اعتبارات بلاغية جمالية غاية في العمومية ، ولذلك ساد الفهم القائل بأن البليغ من استطاع أن يفهمك حاجته (٢١) ، فاعترض الشيخ الجرجاني على هذا التسطيح لمفاهيم علم البيان ، قال : ((ودخل على الناس من الغلط في معناه (علم البيان) ما دخل عليهم فيه ... جهلٌ عظيم وخطأٌ فاحش ، ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين وما يجده للخط والعقد ، يقول : إنما هو خبرٌ واستخبار، وأمرٌ ونهي ، ولكل من ذلك لفظٌ قد وضع له ، وجعل دليلاً عليه . ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها فهو بينٌ في تلك اللغة ، كامل الأداة بالغُ البيان المبلغ الذي لا مزّية عليه ، منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها ... وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت ، جاري اللسان ، لا تعترضه لُكنةٌ ، و لا تقف به حُبسة)).(٢٢) ،وعلى الرغم من أن فكرة الجاحظ قريبة من فهم دي سوسور للوظيفة الاجتماعية للغة وتنوع سبل التدليل على المعنى ×، إلّا أن الجرجاني يميل إلى جانب العلامة اللسانية فحسب ، فالإنسان يصوغ ويترجم أفكاره في قوالب لغوية وإن كان تفكيره باطنياً (٢٣) . ولا تتحقق هذه النزعة إلا في وجود نظام اصطلاحي من العلامات الدالة ،أهمها وأكثرها استعمالاً هي العلامات اللسانية ومن المفاهيم التواصلية المتفق عليها أن الفهم والإفهام هو الغاية التي يسعى إليها الانسان ، وأما اللغة ((فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم)) (٢٤) ، لكنّ هذا التحديد والاشتراط يُخرج مقولة النصبة أو الحال من مجموعة العلامات ، إذ لا يتوافر فيها شرط التواصل ، فلا يقصد المحموم مثلاً أن يُبلغ الطبيب بعلته ، لأنه غير قادر على استعمال الحمى مادة توصيلية تتحكم بها إرادته ، ولذلك ذكر بعضهم أن الدلالة ثلاثة : الكلام والخط والإشارة (٢٥) ، إلّا أن بعضهم الآخر استبقى الحال (النصبة) ضمن أنواع البيان بحس عقائدي (٢٦) ، ولكنهم في الوقت نفسه جعلوا من صميم الإنجاز البياني أن يتجسد بالتعبير عن قصد التوصيل ، وذلك في حيّز التفريق بين الكلام وحديث النفس ، إذ إن هذا الأخير ((ليس خبرا لذاته بل يصير خبراً بقصد القاصد إلى التعبير عمّا في النفس))(٢٧) ، وإذا عطفنا هذا الكلام على فكرة شرط وجود القصد والتواصل والإرادة التي تتحكم في ذلك ، نلمس تناقضاً في هذا الموضع في تقسيمات أنواع الدلالة في الفكر العربي بشكل عام ، ولا يؤثر في قيمة نتائج البحث الدلالي عند العرب ، بالقياس إلى ما تمخّض عن تأكيد القصد والتواصل الذي لم يأتِ من فراغ ، بل نضج عن إدراك لضرورة وجوده التي ميّزت بين الأنظمة الإشارية البشرية والأنظمة الأخرى . وبقي الفهم العام للتواصل بين الجنس البشري وتكوّن اللغة على أنه جاء عن حاجة اجتماعية وملكة غريزية ((لأن من طبع الانسان محبة الإخبار والاستخبار))(٢٨) ، ولذلك تشكلت وسائل البيان عن طريق أنظمة إشارية تعدّ انعكاساً لرسم الحياة الاجتماعية بأوجهها كلها، ((فلولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد ، لما احتاجوا إلى الأسماء)) (٢٩) ، ولذلك يقول الجرجاني ـ في معرض الرد على الجاحظ ـ : ((وجملة الأمر أنه لايرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك ، إلا من جهة نقصه في علم اللغة ، لا يعلم أن ها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلّوا عليها ، وكُشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضُل بعضه بعضاً ...

وتمتدُ الغايةُ ، ويعلو المرتقى ، و يعزُ الطلب ، حتى ينتهي الأمرُ إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج من طوق البشر)) (٣٠) .

إن موضوع المعنى والتواصل في فكر الجرجاني يدعونا بشكل مباشر إلى الحديث عن مفهوم العلامة عنده ، ونجد في ثراء نصوصه اختزالاً كبيراً لفهم تجريبي متقدم ، إذ يقول عن العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول التي تشكّل طبيعة العلامة اللسانية : ((فلو أن واضع اللغة كان قد قال «ربض» مكان «ضرب» ، لما كان ذلك ما يؤدي إلى فساد . وأما «نظم الكلم « فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني ، وترتبها على حسب ترتّب المعاني في النفس)) (٣١) . وفي هذا استجابة لمنطق الوجود خارج الذات ، و المعاني في النفس إذا يمكن أن يكون القرآن الكريم في غير العربية لأن المسألة لا تتعلق بالألفاظ وأشكالها وأصواتها ، بل بتعلق الأمر بتأدية المعنى الموجود في النفس ، وفيه ـ كذلك ـ تقرير لأعتباطية العلامة اللسانية فضلاً عن الطبيعة النفسية لطرفيها ، وهذا ما ذهب إليه فريق من علماء العربية قد أثار ذات المسألة وتوصل إلى ما توصل إليه دي سوسور في موضوع العلاقة بين الصورة الذهنية للفظ والشيء الدال عليه في الخارج ،إذ تسآءلوا: هل الالفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية- أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع- أو بازاء الماهيات الخارجية ؟

يذهب فخرالرازي وأتباعه إلى ان الالفاظ موضوعة إزاء الصورة الذهنية وليست بإزاء الماهيات(الأشياء) الخارجية. واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن. وأن اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية فدل ذلك على ان الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي.(٣٢) و قد حلل دي سوسور العلامة إلى مكونيها الدال Signifier والمدلول Signified والدال هو الجانب الصوتي من المادي من العلامة إذ يمثل الصوت في حالة اللغة المحكية أو الحرف المكتوب في حالة اللغة المكتوبة ، أما المدلول فهو الجانب الذهني فهو لا يشير إلى الشيء بل يشير إلى الصورة الذهنية (السايكولوجية) أو الفكرة عن الشيء، ويؤكد دي سوسور علي الوحدة بين مكوني العلامة اللسانية . ويستدرك الفكرة المتعلقة بالدال أو الجانب المادي الصوتي بالإشارة إلى أنه ذو (طبيعة سايكولوجية) أيضاً فيصبح العنصران المكونان للعلامة اللسانية من طبيعة ذهنية واحدة ، إلاّ أن أحدهما أكثر تجريداً من الآخر (٣٣) ، فبنى دي سوسور شكل علامته على نموذج فكرة المثاليين ؛ ولذلك استبعد عنها ركن الواقع أومرجعيته أوالإحالة إليه .فاللغة ليست تسمية الأشياء ، بل أن مادة اللغة (أو العلامات اللسانية) تربط بين المفهوم والصورة الصوتية في الذهن (٣٤) .و يمكننا وصف طريقة تفكير دي سوسور بالغائية (البراغماتية) ؛ لأنه يرسم هدفه أولاً عند وضع مقولاته ، ومن الإنصاف القول أن فكرة الاعتباطية بوصفها طبيعة العلامة اللسانية كانت موجودة في التراث الإنساني وحاول الفكر الفلسفي واللغوي إيجاد كثير من الحجج والبراهين لإثبات صواب هذه الفكرة ، فليس جديداً يأتي به دي سوسور في هذا المجال ، ولكنه يقف على أهمية النتائج التي تترتب على تبني هذه المقولة ؛ فبعد أن أقر بأن للعلامة اللسانية طبيعة اعتباطية أي إن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية ، قال : ((لايختلف اثنان في الطبيعة الإعتباطية للإشارة ، ولكن اكتشاف الحقيقة أسهل من وضعها في مكانها المناسب ، فالمبدأ الأول ﴾ الاعتباطية ﴿ يسود دراسة علم اللغة ، وله نتائج لا تحصى بيد أنّ هذه النتائج ليست جميعها واضحة للوهلة الأولى ، لا يكتشفها المرء إلاّ بعد عدّة محاولات ...)) (٣٥) ، ولم يقدم لنا دي سوسور تطبيقاً لإثبات هذه الفكرة ، أو بيان أبعادها النقدية والجمالية ، في حين أن الجرجاني قدم استدلالاً على المعطيات النقدية لصفة اعتباطية العلامة اللسانية فوجد أن للفصاحة معياراً واحداً عند المتكلم والمتلقي وهي متعلقة بالمعاني لا في صفات الألفاظ ، إذ تكمن المزية في المعاني وطريقة تأديتها ولا تكمن في صفات الألفاظ وخصائصها ، فهذه المعاني أحقّ بأن تستولي على هوى النفس ، وميل القلوب ، ولا سبيل إلى تحصيل هذه النتيجة إلا بأن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتنتخب له اللفظ الأخص به . وإذا نظرنا إلى تلك الألفاظ وهي مفردة قبل أن تظم إلى

بعضها لم نجد فيها تلك السمة الحنة ، فلا تفاضل بين الكلمات المفردة في دلالتها على المعاني الموضوعة لها وهي خارج التركيب ، وهذا الحكم يعم اللغات كلها (٣٦) ، ، إذن اللغة اعتباطية في علاقاتها الدلالية ، لكن نظام الدلالة في الكلام ليس اعتاطيا ، فالنظم ليس اعتباطياً ؛ لأنه تنظيمٌ للدوال بحسب مقتضيات العقل الذي يستجيب للعلاقات المنطقية بين المعاني لأنها صور نفسية للأشياء في الوجود ، أي أن المرسل يعمل فكره ويحكم أقيسته ليصنع مرسلته ، لكننا لا ننسى مبدأ الاعتباط في علاقة الدال بالمدلول ، فضلاً عن أن العلامة تفارق مرجعها ، لكنها جزء من بناء إجتماعي تحيا فيه ويسخرها بوصفها أحدى أدواته بل هي الأكثر أهمية من بين أدواته ، وإن الدلالة اللغوية في جوهرها هي ربط الأصوات بالمعاني ويتحقق ذلك في ظل الحافز التواصلي بين أفراد المجتمع اللغوي، مما يجعل اللغة نظاماً من العلامات الدالة التي تغطي مجالا أرحب من المفاهيم ، إذاً فهي جزءٌ من حقل ألسني يشمل جميع التصورات المستوحاة من الواقع وتحقيق التلازم بين الصورة السمعية الدال المرتبط بتلك الصورة (المدلول). / المتكلم المعاني أولاً والألفاظ خدم لها ((وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق)) (٣٧) وقد رسخ عند النقاد المحدثين يقينٌ ثابت أن اللغة لم تعد مجرد وسيط للفكر بل أصبحت هي نفسها مساويه للفكر ، ويبدو أن الجرجاني أدرك أن النص هيكلٌ دلاليٌ ، جسدُهُ لفظيٌ ، إلّا أن المعنى هو المشكل فالمعنى ، قائمٌ بالقوة والفعل معاً ، ((وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال ، وإنما تطلب المعنى ، وإذا ظفرت بالمعنى ، فاللفظ معك وإزاء ناظرك)) (٣٨) ، وينبغي بحسب ضوابط البلاغة عنده أن يراعي المرسل التعادل بين عملية اختيار الألفاظ وتشكيلها بنسق يقتضيه المعنى ؛ ((لأنّ مراعاة التعادل إنما تصعب إذا احتيج مع ذلك إلى مراعاة المعاني ، إذا تأملت. يذهب إلى شيءٍ ظريف ، وهو أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وذلك محال لأن الذي يعرف العقلاء عكس ذلك ، وهو أن يصعب مرام المعنى بسبب اللفظ ...)) (٣٩) ، و إن طلب السجع مع التمحل يؤدي إلى العدول عن أسلوب إلى آخر وإن تدخل في المجاز والاتساع (٤٠) ، فيركن الجرجاني إلى أن التشكل الجمالي يستند إلى مقومات وأقيسة عقلية ، ويحدث التفاوت الجمالي بين النصوص بحسب التفاوت في المعطيات العقلية التي تنتج المعنى ، ((والفائدة في معرفة هذا الفرق : أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم ، أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها ، على الوجه الذي اقتضاه العقل)) (٤١) ،فالعقل يصنع مواصفات المعنى ، فتتفاضل بينها بسبب التفاوت في نسبة ذلك المعنى ونوعه ، فإنّ ((ههنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم ، والتأليف التأليف والنسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل ، وتكثر المزية)) (٤٢) ، وهذه دعوى إلى إلى ضرورة التركيز على العلاقات الداخلية للنص ، واليتي تمثل المعالم الرئيسة للأدبية النص ، وتتكون سمة الأدبية بشكلٍ عام من الأساليب والأدوات التي تميز الأدب عن غيره أي الخصائص التي تميز ذلك الأدب (٤٣) . ويقول ياكوبسن: ((إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عموميتهِ وإنما أدبيتهِ أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملاً أدبيًا)) (٤٤) . ونجد هذا المفهوم مختصراً لدى الجرجاني بفكرة تعلق الألفاظ بعضها ببعض وتجعلها سبباً من صاحباتها ، وضمها بحسب اقتضاء المعنى هو النظم (٤٥) ، والنظم عنده هو الإسناد ((ومختصر كل الأمر أنه لايكون كلام من جزء واحد ، وأنه لابد من مسند ومسندٍ إليه ...)) (٤٦) ، وتبقى الروابط بين الكلم ، أو بين طرفي الإسناد ذات صفة منطقية ، أو بعبارة اصطلاحية لسانية : (نحوية) ، أي إنّ تعلق الكلم ببعضها محكوم بضوابط وأحكام نحوية ، فـ ((لا ترى شيئاً من

ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ، ومعنى من معانيه ، ثم إنّا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ، ونرى العلم بها مشتركاً بينهم))(٤٧) . ويبصّطها الجرجاني عندما يصنف مكزنات اللغة وأنواعها والعلاقات بينها فيقول : ((وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ولا من حرف واسم ، إلاّ في النداء ، نحو : «يا عبد الله « ، وذلك إذا حُقِّق الأمرُ كان كلاماً بتقدير الفعل الذي هو « أعني « ، و«أريد» ، و«أدعو» ، و(يا) دليلٌ عليه ، وعلى قيام معناه في النفس)) (٤٨) ، ويمكن إجمال عناية الجرجاني في بداية حركة عملية التواصل بثلاثة أركان ، هي : اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول من جهة ، ومفارقة الدال لمرجعه من جهة ثانية ، والعلاقة المنطقية بين أجزاء التركيب من جهة ثالثة ، وهذا مايتعلق بالنص أو (المرسلَة) ، وكذلك اهتم بما يتعلق بالشق الثاني من الركن الأول وهو اكتمال صورة المعنى في النفس ، أما الركن الثالث فهو المتكلم أو(المرسل) ، إذ انطلق الجرجاني من فرضية دينية وهي بيان دلائل إعجاز الباري عزّ وجل ، بوصفه مرسلاً . ومن امتدادات فكرة اعتباطية العلامة اللسانية أو النتائج التي ألمح إليها ، مع التأكيد على العلاقات بين الكلم تتولد الصيغ البلاغية ، وهذه الأخيرة في وسط فكرة التواصل تشكّل جزءاً من نظام التشفير بين المتكلمين ، فظهرت الكنايات والمجازات ((فقد أرادوا في هذا كله ... معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان)) (٤٩) ، و كذلك يؤكد على إرادة المتكلم في السياق نفسه ، والمتكلم هو الذي يصنع المعنى ، فـ ((والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم :«هو طويل النجاد» يريدون طويل القامة ...)) (٥٠) ، ويتفق النقاد المحدثون باختلاف مدارسهم واتجاهاتهم على صحة هذا الرأي ، فإن العلاقة الإعتباطية بين الدال والمدلول تمنحهم الفرصة إلى تشكيلها من جديد ومنح الدال قدرة أداء معانٍ أخرى غير التي وضعت له حقيقة (٥١) ، وهذا يعني أن الإستعارة والمجاز بأنواعه والتضمين وغيرها من شعب المعاني وفنون القول كلها ثمرة تلك الطبيعة الاعتباطية للعلامة اللسانية . فالعلامة في الاستعمال المخصوص بهذه الانواع من الفنون تكون كياناً ميتا دلالياً (٥٢) ، وقد أشار دي سوسور إلى كيفية السيموزيس أو عملية تكون الدلالة ، فالعلامة تكتسب وظيفتها الدلالية بحسب موقعها من مجموع مايجاورها من العلامات ، أي من نظام العلاقات العام سواء أكان شيئاً من نظام اللغة ، أو مايحكمها من نظام الكلام (٥٣) .

تتغاير نوعية العلاقة بين المرسل والمرسل إليه ولا تقف عند حدود النقل المباشر بل تتعداه داخل إطار البنية العامة للتواصل إلى نماذج متباينة تختلف باختلاف طبيعة التواصل وغاياته إن السيميائيات في مقابل هذا كله، لا تهتم سوى بآثار المعنى الناتجة عن انتظام الرسائل؛ أي بشكل الرسالة، وبآلية اشتغالها التي تستطيع أن تمظهر الاستراتجيات الخطابية والتواصلية . لقد ((كادت السيميائيات تعرف بأنها علم يختص بمدارسة السنن طورا وبمدارسة جميع الأنساق الدالة طورا آخر؛ ولهذا انكبت السيميائيات الواصفة على تتبع سماته العامة وعلاقته بالسيرورة العامة للتواصل، ودوره الحاسم في هذه العملية))(٥٤) ، وإن هذا الاهتمام لا يعمل إلا على حصر ((السيميائي ضمن مجال مختزل شيئا فشيئا... يتخلى ضمنه عن كل ما هو واقعي ، لصالح الانتظام الوحيد الذي تخضع له المرسلات)) (٥٥ (، وإذا كانت الأنساق الدالة هي من تحدد صور الانتظام ومادته، فإن الأسنن هي من تتولى المصادقة على قابليتها التواصلية. وقد وجد الجرجاني أن الإسناد من المرتكزات الفكرية التي تشكل القانون العام في النظم ، وتعد الذات المكون المحوري فيه ، فالفعل حدث طارئ والذات ثابتة ، وكذلك الخبر ، وإذا افترضنا أن الوجود يختزل بجملة ، فتكون الذات عامل التشكّل الأساس في هذا الوجود ، فـ ((إذا قلتَ « هل خرج زيدٌ « لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقاً ، ولكن عنه واقعاً من « زيد « ، وإذا قلت: « إن يأتيني زيدٌ أكرمهُ « لم تكن

جعلت الإتيان من «زيد» ، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاءً للإتيان ، بل الإكرامَ واقعاً منك ، كيف ؟ وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال ، وهو أن يكون ها هنا إتيان من غير آت ، وإكرامٌ من غير مُكْرِم ، ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاءً)) (٥٦) .

تقاسم الفكر العربي الاهتمام بطرفي العلامة اللسانية (اللفظ والمعنى) ، وكان الجرجاني من رواد الميل إلى جانب المعنى ، ولم يكتفِ بذلك ، فقد ذهب إلى أن بعض المعاني تتشابه أو تتناسب ، فيبقى الفضل بينه إلى طريقة إثبات المعنى ،فالمزية في ما يحدث من المعاني الحاصلة من تركيب الكلام تكمن في الإثبات دون المثبت ، ففي الكناية يثبت المعنى بإثبات دليل على الصفة ، وفي الاستعارة أوجبت وجود تلك الصفة وكذلك التمثيل ، وأما المعاني التي تقدم بشكل مباشر فيسميها بالمعاني الساذجة أو الغفل .(٥٧) ، ويسمي بعض أنواع الاستعارات المكرورة بالعامي المبتذل ، مثل : رأيتُ أسداً ، ووردت بحراً ... (٥٨) . فالمعاني البيانية أو التي تأتي في قوالب فنية تتفاوت ، وينبغي أن تتوافر فيها الجدة والدقة والجودة والفائدة ، و لا يمكن للألفاظ أن تمنحها هذه السمات ،و ((اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض)) (٥٩) ، وكذلك قال في السياق نفسه : : ((إعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدّعى لها ـ في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم طريق إليها بخبره ، ولكنّها في طريق إثباته لها وتقريره إياها)) (٦٠) ، والنص كيان دلالي متكامل ويعد السياق أحد مكونات السنن ، وفي حديث الجرجاني عن المواضع إشارة دقيقة إلى العلاقات التبعية في سياق النص ، فضلاً عن تلميح بوجود سياق المقام ، فـ ((ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع ، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي ترم)) (٦١) ، ويمكن استكشاف علاقات خارج نسق اللسان تكمن في العلاقات السنتاكمية ، ((يقول هاريس : أن اللغة لاترد على هيئة كلمات مبعثرة أوجمل منطوقة بل على هيئة حديث متصل discourse، أي في صيغة جمل منظومة أومكتوبة على التوالي ، ينتجها شخص واحد أو أكثر في مناسبة واحدة فإذا كان اهتمام المرء منحصراً في الكفاية اللغوية فما عليه إلاّ أن يتناول مجموعة اعتباطية من الجمل ، يحتاج من غير شك إلى توضيح)) (٦٢) . وعلى أساس هذا التصور أخذ النقاد بالبحث عن مظاهر العلاقات داخل الجمل وما بينها لإيجاد ثوابت النظام التكويني الذي تنتج عنه الدلالة الثانية (دلالة النص) فركز ـ لويس ـ على رابط الجملة بقوله ((إنه ذلك الجزء من الجملة الذي إلى جانب وظيفته في الجملة التي يرد فيها ، يربط تلك الجملة بجملة أخرى)) (٦٣) ، فالعلاقات الناتجة عن ذالك الترابط هي علاقات تبعية . في حين استند بولسن في تحليل الفقرات إلى عامل الحافز ـ والاستجابة ـ ويذكر أن الفقرة المعنية تشكل نمطاً ثابتاً إلى حدٍ ما من الحافز والإستجابة ... إذ إن كل استجابة تعد حافزاً لاستجابة أخرى والإستجابة الأخيرة في الفقرة قد تكون حافزاً تبدأ به سلسلة ـ الحافز ـ الأستجابة في الفقرة الآتية (٦٤) . وقد تكلم الجرجاني على مجموعة من العلاقات التبعية في الجملة العربية ، فضلاً عن العلاقات بين الجمل في سياق ما، ومن ذلك موضوع التقديم والتأخير، فافترض أنه نوعان :(التقديم على نية التأخير) ، و(التقديم لا على نية التأخير) ويمكننا الإشارة إلى ما تركته الآثار المنطقية من ضلال على تفكير الشيخ الجرجاني وتقسيماته فقد فرضت ثنائية التضاد حضورها عنده ، فأوجدت النوع الثاني من التقديم (٦٥) ، وهو((أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم ، وتجعل له باباً غير بابه ، و إعراباً غير إعرابه ، وذلك أن تجيء إلى إسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الثاني خبراً له ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ، ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق ...)) (٦٦) . و بهذا ومثله يبني الجرجاني فكرة النظم التي تعتمد تشكيل الجمل على سمت المعنى ، ولذلك يقدم لنا مفهوماً للنظم بحسب قوانين النص المرتبطة بالمعنى ، فليس النظم ـ عنده ـ ((... إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو» ، وتعمل على قوانينه

وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغُ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تُخل بشيء منها)) (٦٧) ، ويعد ذلك مفهوم واضح للبنية النصية ، وهو قريب جداً من مفهوم البنية في الدراسات النقدية واللسانية الحديثة ، التي تعد البنية وسيلة للكشف عن عناصر النظام في الأدب (٦٨) . فأصبحت جزءاً من أداوات النقد الحديث ، وأصبحت ضالته فكرة النظام أو النسق الذي يتحكم بعناصر النص وأجزائه مجتمعة ، الذي يمكن أن يظهر عن طريق شبكة العلاقات العميقة بين المستويات النحوية الأسلوبية والإيقاعية ، فهي مستمدة من فكرة العلاقات اللغوية التي تعد أساسًا من أسس نظرية دي سوسور التي وضحها حين ذهب إلى أن اللغة ليست مفردات محددة المعاني ولكنها مجموعة علاقات ، بمعنى أن الكلمة لا يتحددُ معناها إلا بعلاقتها مع عدد من الكلمات ، بما سبقها وما لحقها. والحقيقة أن الجرجاني ينبه إلى هذه الاتجاه في الدراسة ، ويجده خصباً مثمراً ، ((وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً وفائدة جسيمة ، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل)) (٦٩) ، وإلى جانب أهمية هذا الاتجاه في الدراسة يوازيه بالأهمية نفسها جانب الخطورة والحذر في تحليل النص وفهمه وتفسيره ، مما يوق المتلقي في دائرة الوهم أو الشك وهو يقول :((فإن النفس تنازعُ إلى تتبُّع كلِّ ضرب من الشبهة يُرى أنه يعرِض للمسلم نفسَه عند اعتراض الشكِّ)) (٧٠) ، وفي هذه المرحلة تتمفصل عملية التواصل ، فإن الرسم الأخير للمعانى في المرسلة تتشكل في ذهن المتلقي أو المرسل إليه ، وهنا دعوة للقراءة والتأويل . فتتكامل العملية عند المتلقي . فيدعونا إلى البحث في إحدى الآيات الكريمات لإثبات أن المعاني لا تتجزأ في النص بل على المتلقي جمع أطراف الصورة ، قال : ((وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى ﴿﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءكِ ويا سماءُ اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾﴾ هود/٤٤ . فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع ، أنك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمرٍ يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلّا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها . وأن الفضل ما بينها ، وحصل من مجموعها)) (٧١).

ويميل الجرجاني إلى التفكيك و التجريب ، يقول((ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم أن كان النداء «بيا « دون «أي» . نحو « يا أيتها الأرض « ، ثم إضافة «الماء» إلى «الكاف» ، دون أن يقال :» ابلعي الماء» ، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : و «غيض الماء» فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضي الأمر» ، ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور ، وهو : «استوت على الجودي» ، ثم إضمار «السفينة» قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة «قيل» الخاتمة بـ « قيل» في الفاتحة)) (٧٢) ، والصورة عنده لا تخضع للتمفصل المزدوج كون تمفصلاتها لا تقع على الدال دون المدلول لتقاربهما، فإذا ما أخذنا صورة لثلاثة أشياء وفصلنا أحدها فإننا سنجد أنفسنا أمام تقطيع للدال والمدلول معا. فحيث توجد الوحدة المتعالية والمباشرة توجد الرسالة المجملة التي لا تقبل وحداتها التمفصل الأول(٧٣)، بيد أن ما يجيز التمفصل المزدوج في اللسان، شساعة المسافة بين الدال والمدلول؛ التي تعد طرفا مؤسسا لجوهر الاختلاف الفونيمي المفرغ من الدلالة. إن عدم خضوع الصورة للتقطيع المزدوج (٧٤) ، وتابع الجرجاني فكرة النظم ومحاولة إثبات أن المعنى هو الركيزة الأساس في تشكّل المرسلة ، واصطياه يعطينا الصورة اللفظية المناسبة له ،ولا تنتهي تلك المتابعة في مر حلة المرسل والمرسلة بل يلاحق فكرته ليثبتها عند المرسل إليه ، ويحاول أن يقنعك بأن المزية في المعنى وليس في صفات اللفظ الذي يطرق الأسماع ، ((وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ ، وأنها ليست حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك ، وتمل رويتك ، وتراجع عقلك ،

وتستجد في الجملة فهمك)) (٧٥) ، و ترتبط التباينات النوعية للأسنن تباعا بتباينات في عملية التسنين وفكه، ولانجد لهاتين العمليتين تأثيرا في بناء المعنى وتشييده، فقد ((يتداخل مفهوم التسنين بالفهم وبخاصة إذا تعلق الأمر بالنسق اللساني الذي أضفى عليه دي سوسور بعدا سيميائيا، ولم يعرفه بأنه سنن. إن المستقبل يتلقى المرسلة عبر متتالية من الإشارات يحاول أن يضفي عليها معنى يقصده المتكلم أو يقترب من قصده ؛ لأنه لا تواصل خارج العملية القصدية وهذا ما لا يقوم به إلاّ الإنسان، ولا تستطيع الآلة في الراهن على الأقل منافسة البشر في ذلك لكونه حيوانا ناطقا ورامزاً)) (٧٦) . وأثبت الجرجاني أن الإسنن تخضع لمقتضيات المدلول ، إذا أردنا تخصيص القوة في جوهر ما ، فيكون المدلول جوهراً والدال عرضاً له لأنك ((تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة ، من غير أن تغيّر من لفظه شيئاً ، أو تحوّل كلمةً إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ، ويفسرون الواحد عدة تفاسير ، وهو على ذاك ، الطريق المزلّة الذي ورّط كثيراً من الناس في الهلكة))(٧٧) ، ويقدم الجرجاني دليلاً تطبيقياً لإثبات ذلك ، ويعده نظاماً في تشكّل السنن ، وهذا ما افترضه في إبطال محاولة تقدير أن (لعابَ الأفاعي) مبتدأ ، و(لعابُهُ) خبر ، كما يوهمه الظاهر ، يفسد المعنى ، في قول أبي تمام :

لعابُ الأفاعي القَاتلاتُ لُعَابُهُ
وَأرْيُ الجَنَى اشْتارَتْهُ أيد عَواسِلُ (٧٨)

يقول الجرجاني :((أبطلت الصورة التي أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداداً قلمه بلعاب الأفاعي ، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلف به النفوس ، وكذلك الغرض أن يشبه مدادَهُ بأرْيِ الجنى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به النفوس ما تَحْلُو مذاقته عندها .. وهذا المعنى إنما يكون إذا كان «لعابُهُ» مبتدأ ، و«لعابُ الأفاعي» خبراً له)) (٧٩) . فإن قدّرنا غير ذلك فسد المعنى الذي أراده أبو تمام ، وهذا ما يثبت أن المعنى يحدد وظائف الكلمات في الجمل وينظم العلاقات بينها ، أي إن ترتيب الألفاظ في الكلام لايمنحها المعنى ، لأن المعاني هي المتبوعة و الألفاظ هي التابعة في حركة عملية التواصل ، وقد بين الجرجاني في استدلاله السابق وهم من تصور العكس ، فـ ((إن نظر ناظر في شأن المعاني والألفاظ إلى حال السامع ، فإذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه ، ظنَّ لذلك أن المعاني تبعٌ للألفاظ في ترتيبها ، فإن هذا الذي بينّاه يُريه فساد هذا الظن . وذلك أنّه لو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها ، لكان محالاً أن تتغير المعاني والألفاظ بحالها لم تَزُلْ عن ترتيبها ، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيُّر من غير أن تتغيّر الألفاظ وتزول عن أماكنها ، علمنا أن الألفاظَ هي التابعةُ ، والمعاني هي المتبوعةُ)) (٨٠) . وأجد أن هذه الفكرة كانت أوضح بكثير من محاولا ت دي سوسور في تقديم فكرة (القيمة) (Value) بل تجاوز الجرجاني مسألة تحديد معنى الكلمة بحسب السياق ، وذهب إلى أن المدلول هو الذي يصنع السنن ، وإن مصطلح القيمة غالبا ما ينظر البعض إليه على أنه مرادف لمصطلح المعنى Meaning، وقد رأى دي سوسور أن في ذلك بعض الغموض والإرباك ، ثم حاول توضيحه فأشار إلى أن القيمةَ عنصرٌ في المعني ـ فهي تساعد علي تبيانه ـ و لكن لا يجب النظر إلى المعنى على أنه أي شيء آخر بخلاف القيمة ، أي على أنه يوجد بذاته ، من دون ما تقتضيه القيمة من دخول الكلمة في علاقات تسفر عن تحديد معنى الكلمة ؛ ويشعر دي سوسور أن كلامه بهذا الشكل لا يؤدي المطلوب منه ، فيعرض للفارق بين رؤيته للمعني، وبين الرؤية التقليدية السابقة له ، إذ الرؤية التقليدية للمعني تراه كامناً في الكلمة نفسها ، ومن ثم يصبح المعنى طبقا لهذه الرؤية نظيرا للصورة السمعية المنطوقة ، أما رؤيته هو فتقوم علي أن القيمة الخاصة بالكلمة تتحدد علي أساس علاقات هذه الكلمة بغيرها في السياقات المختلفة، إذ هو يحذر من النظر إلي الكلمة علي أساس أنها عنصر جوهري منفصل يمتلك معني في ذاته، وإنما يجب دائما النظر إليها علي أنها عنصر في نظام ، وهي نقطة يلح عليها (دي سوسور) كثيرا في محاضراته (٨١) .

و ينتقل الجرجاني إلى حيز المتلقي ، ونجده في الأعم الأغلب يتحدث عن وظائف المرسلة ، فهو يشدّك إلى وظيفة

النص الجمالية الشعرية ، وتأثيرها في المتلقي ، فيشير إلى الوظيفة التفاعلية ، قال : ((أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ... كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب)) (٨٢) . و قد استشعر ياكوبسن تلك العلاقة بين الوظيفتين ، مستنداً على تقسيمه لأطراف التواصل ، ودعته هذه الفكرة إلى إيجاد صلات مشتركة بين اللغة والأدب ، ومجالات دلالية أخرى ،، ومشا بهته نظام الكناية والإستعارة في الأدب وكذلك معرفة الأحداث والمشاهد المستقبلية ، أو توقعها ومشابهتا حل النظام الشفري (٨٣) .

إن الغاية من الكلام هي ما يصبو إليها المتواصلون و يهتم هؤلاء بالغاية أو الفائدة منه فضلاً عن اهتمامهم بنوع الكلام ومستواه الجمالي ، و ((قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وإن للاستعارة مزّية وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة . إلّا أن ذلك ، وإن كان معلوماً على الجملة ، فإنّه لا تطمئّن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يتغلغل الفكر إلى زواياه ، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة))(٨٤) وإن البحوث والدراسات التي اعتمدت هذا المفهوم قدمت سمة الاهتمام بالأداء اللغوي competence)) بدلاً من الكفاية اللغوية (performance) (٨٥)، وشكل هذا الاهتمام مفترق طريق للبحث عن مفاصل جديدة في النص الأدبي كالتكوينات الرمزية والعناصر البنيوية التكوينة الكبرى ، فقد تعامل كل من ليفي شتراوس وميشيل فوكو وجاك ورولان بارت ديريدا مع التراث الفلسفي أو الإنساني على أنه نظام من الرموز وهو في النهاية ليس إلّا نصوصاً مكتوبة أو اساطير محكية في حالة شتراوس ، لقد حلل شتراوس الأساطير على أنها مجموعة من الرموز والعلاقات ويتحدد معنى الرمز فيها عن طريق الموقع الذي يحتله داخل الأسطورة وكان حذراً من الوقوع في الخلط بين ماهو طبيعي وماهو ثقافي (٨٦) . ولذلك ظهرت مقولة العلامات الثانوية أو (اللغات المتولدة) على أساس اللغة الطبيعية نفسها ، و يقترح بارت جرياً وراء هيلمسليف تصوراً لعلامات ثانوية (نصية) تتأسس دوالها من مدلولات العلامات اللسانية (٨٧) . وإن الظواهر التي تتفق وهذه الحالة يسميها هيلمسليف (دلالة) أو مؤشراً ؛ و اللغة الثانوية التي تنشأ نتيجة هذه الدلالة تشكل في ذاتها لغة اصطناعية شارحة)ميتالغة) . وما يهم دارس الأدب هو العلامات الثانوية أكثر من غيرها ، وفي هذه الحالة يكون (التضمين ((connotation و في هذه الحالة يكتسي النص كله ، الذي يتكون من عدد من علامات اللغة الطبيعية، معنى ثانوياً جديداً، وهذا المعنى الجديد لا يلتقي مع أي معنى من معاني الكلمات المفردة الموجودة في النص. وبكلمات أخرى ، فإن النص كشيء متكامل يصبح علامة جديدة ، تكون فيه علامات اللغة الطبيعية (يعني الكلمات) هي الدال ، أما المدلول فهو شيء ما جديد (يعني عدم إمكانية تصوره مجملاً لمعاني الكلمات المفردة في النص). وإذا كان التعبير العادي يتكون من كلمتين يمكن أن يكتسي معنى ثانوياً، فيمكن أن ينظر إلى النص كله كدال متكامل ، يراعي أي مدلول ضمني آخر (٨٨) .

وظهر التركيز على عملية التواصل في مجال الفوائد من أشكال التراكيب المتنوعة في الجملة العربية ، ومنها شكل التقديم والتأخير ، ففي سياق حديثه عن ملاحظات علماء العربية على التقديم ، قال : ((أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب ، وهو يذكر الفاعل والمفعول « كأنهم يقدمون لبذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم « ... وقال النحويون : إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ، ولا يبالون من أوقعه ...)) (٨٩)، وكذلك صنعوا في الأبواب الأخرى ، مثل : الحذف ، والتكرار ، والإظمار والإظهار ، والفصل والوصل ، والجرجاني يأخذ عليهم اكتفاءهم بهذه الفائدة ، ويشير إلى غنى المعارف المتحصلة من النظر إلى العلاقات بين مكونات التراكيب و ثمار البحث في مواضع الكلم من بعضها ، والمعاني المسببة لذلك النسج .(٩٠) يرتبط مفهوم السنن(code) لدى سوسير بمفهوم الكلام×؛ أي بكل ما هو إنجاز واستعمال، ومن ثم بمفهوم

التواصل، ذلك أن الكلام تحدده دورة تضم فردين على الأقل. فالسنن هو المخزون الذي يتخير منه الفاعل المتكلم مجموع الوحدات التي تؤلف الملفوظ أو الرسالة، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه مجموع القواعد التي تسمح لنا بنظم الوحدات فيما بينها، وبهذا المعنى فإننا ننتقل إلى مفهوم النسق (٩١) إن السنن ((هو مجموعة البرامج التي تضطلع بترجمة المثيرات الطبيعية التي تستقبلها مدارك الحس لتندمج ضمن وحدة عضوية مع المكونات المعرفية الأخرى، فتنتقل من طور الممارسة إلى طور التفكير المجرد، إذ يقوم بتحويل المثيرات الخالية من المعنى والمرجع إلى علامات ذات دلالة داخل المرسلات؛ وذلك بالاستعانة بالخبرات الحسية السابقة واستثمار المعرفة بالعالم التي تؤدي دورا حاسما في تحليل الخطابات وتحديد العالم الدلالي داخلها)) (٩٢) . إن للسنن وجودا بالقوة وللنسق وجودا بالفعل .

الهوامش

(١) ينظر قضايا الشعرية / رومان ياكوبسن / ترجمة محمد المولى ومبارك حنون / دار توبقال للنشر / المغرب ط١ / ١٩٨٨ /٢٧، ٣٣

(٢) كتاب الحروف / الفارابي / ٧٥. ٧٦ / حققه وقدّم له وعلّق عليه : الدكتور محسن مهدي / دار المشرق / بيروت / ١٩٧٠م .

(٣) المغني / عبد الجبار / ج٥ / ١٧٤ / ١٧٥ / القاهرة / وزارة الثقافة والارشاد القومي / (د.ت)

(٤)المغني / عبد الجبار / ج٥ / ١٧٤ / ١٧٥ / القاهرة / وزارة الثقافة والإرشاد القومي / (د.ت) .

(٥) ينظر: رسائل اخوان الصفاء / ج١ / ٣٩٠ . عناية خير الدين الزركلي / مصر / ١٩٢٨م

(٦) ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة / الفارابي / ٣٥ ، الهوامل والشوامل / ابو حيان التوحيدي وابن مسكويه / ٢٤٠ ، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية / جرجي زيدان / ١٢٧/ مراجعة وتعليق : مرا كامل/ دار الهلال / القاهرة / ١٩٦٩م . ، دراسات في فقه اللغة / صبحي الصالح / ١٨٠ / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / ط١٤ / ٢٠٠٠م .

(٧) ينظر: كتاب الحروف / الفارابي / ٧٤ ، التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية / ابن حزم / ١٥٥ / تحقيق : الدكتور إحسان عباس / بيروت / ١٩٥٩م .

(٨) ينظر: البيان والتبيين /الجاحظ / ١ / ٧٥ / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة / ١٩٧٥م . ، شرح العبارة / الفارابي / ٧٥ ، دلائل الاعجاز

/ الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١-٤٧٤)/ قراءة وتعليق / محمود محمد شاكر / شركة القدس / مطبعة المدني / نشر دار المدني ، المؤسسة السعودية بمصر / القاهرة / ط٣/ ١٤١٣ه ـ ١٩٩٢م / ٤٦٢ .

(٩) ينظر: رسائل إخوان الصفاء / ج٣ / ١٠٨ التفسير الكبير / فخر الدين الرازي / ج٢٦ / ١٨٧ / المطبعة البهية المصرية / ط١ / ١٩٨٣م .

(١٠) شرح الفارابي لكتاب آرسطو طاليس في العبارة / الفارابي / ٣٤ .

(١١) كتاب الحروف / الفارابي / ١٣٥ .

(١٢) المغني / عبد الجبار / ج٥ / ١٧٤ / ١٧٥ / القاهرة / وزارة الثقافة والارشاد القومي / (د.ت) .

(١٣) معيار العلم في فن المنطق / الغزالي / ٣٥ .

(١٤) المصدر نفسه / ٣٦ .

(١٥) الخصائص / ابن جني / ج١ / ٣٣ / تحقيق : محمد علي النجار / عالم الكتب / ط٣ / بيروت / ١٩٨٣م .

(١٦) دلائل الاعجاز/ الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١-٤٧٤) / قراءة وتعليق / محمود محمد شاكر / شركة القدس / مطبعة المدني / نشر دار المدني ، المؤسسة السعودية بمصر / القاهرة / ط٣/ ١٤١٣ه ـ ١٩٩٢م ./ ٤٦٢ .

(١٧) البيان والتبيين / ج١ / ٧٥ ـ ٧٦ ، وينظر : رسائل الجاحظ / ج١ / ٢٨٩ .

(١٨) ينظر السيميائية ، الأصول ، القواعد ، والتاريخ / آن إينو وميشال آريفيه ومجموعة من الباحثين / ترجمة رشيد بن مالك / دار مجدولاي للنشر/ عمان / ط١ / ٢٠٠٨ / ٤٢ .

(١٩) علم اللغة العام / فرديناند دي سوسور / ترجمة د يوئيل يوسف عزيز . ومراجعة د مالك يوسف المطلبي / بيت الموصل / ١٩٨٨ /٩٥ .

(٢٠) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات،/ أحمد يوسف / الجزائر/ منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب / امعة وهران/ ط ١/ ٢٠٠٤/١٥.

(٢١) ينظر البيان والتبيين / الجاحظ /١ / ١٤٤ .

(٢٢) دلائل الاعجاز/ ٦ ـ ٧ .× يرى دي سوسور أن اللغة مؤسسة اجتماعية وبشر بعلم السيمياء الذي يتولى دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية عن طريق الكشف عن قوانين جديدة تمكننا من تحليل منطقة مهمة من « الإنساني والاجتماعي» عبر إعادة صياغة حدود هذه الأنساق وشكلنتها. فاللغة بوصفها نشاطا إنسانيا عاما تتجاوز في كيانها حدود اللسان الذي لا يشتغل داخلها سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى لا تقل أهمية عنه (الإشارات - الطقوس - الرموز - الأمارات ...). ولن يكون بمقدورنا، قصر التواصل على اللسان وحده، فذلك يعني تجاهل وإهمال أنساق أخرى لها دور رئيس في إنتاج المضامين الدلالية وإبلاغها. / ينظر علم اللغة العام /١٤ .

(٢٣) مدخل إلى علم اللغة / محمد حسن عبد العزيز / دار النمر للطباعة (دم) (دت) ص١٣.

(٢٤) الخصائص / أبو الفتح عثمان بن جني / ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١/٢٠٠١ / ٤٣ .

(٢٥) ينظر: الفروق في اللغة / العسكري / ٥٣ ، التمهيد / أبو بكر الباقلاني / ١٣ ـ ١٤

(٢٦) . ينظر: النكت في إعجاز القرآن / الرماني / ٩٨ / دار المعارف / مصر / ١٩٦٨م ، إذ قال : إن ((البيان على أربعة أقسام كلام وحال وإشارة وعلامة)) ، وينظر : البرهان في وجوه البيان / ابن وهب الكاتب / ٦٠ التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية / ابن حزم / ٤ ـ ٥ .

(٢٧) المستصفى / الغزالي / ج١ / ٨٥ / المكتبة التجارية الكبرى / مصر / ١٩٣٧م .

(٢٨) رسائل الجاحظ / ج١ / ١٤٣ .

(٢٩) الحيوان / ج٥/ ٢٠١ ، وينظر الهوامل والشوامل / التوحيدي وابن مسكويه / ٦ـ٧ .

(٣٠) دلائل الاعجاز/ ٧ .

(٣١) نفسه / ٤٩ .

(٣٢) ينظر المزهر المزهر في علوم

اللغة وأنواعها / عبد الرحمن جلال الدين السيوطي / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / ١/ ٤٢ .

(٣٣) ينظر علم اللغة العام / ٨٤ ـ ٨٥ . وقد بين دي سوسور هذه الفكرة بالرسم لعملية التواصل (تنظر الصفحات ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢) .

. (٣٤) ينظر نفسه / ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣٥) نفسه / ٨٧ .

(٣٦) ينظر دلائل الإعجاز / ٤٣ ـ ٤٤

(٣٧) نفسه / ٥٤ .

(٣٨) نفسه / ٦٢ .

(٣٩) نفسه / ٦١ .

(٤٠) ينظر نفسه / ٦٢ .

(٤١) نفسه / ٥٠ .

(٤٢) نفسه / ٣٤ ـ ٣٥ .

(٤٣) ينظر: في نظرية الأدب / شكري الماضي / دار الحداثة ـ بيروت / ط١/ ١٩٨٦ / ١٩٠.

(٤٤) أدبنا والبنيوية / جودت الركابي / مجلة الموقف الأدبي ـ العدد ٢٢٠ ـ ٢٢١/ آب ١٩٨٩ / ٦٤ .

(٤٥) ينظر دلائل الإعجاز / ٥٥ .

(٤٦) نفسه / مقدمة الكتاب / ٧ .

(٤٧) نفسه / مقدمة الكتاب / ٨ .

(٤٨) نفسه / مقدمة الكتاب / ٨ .

(٤٩) نفسه / ٦٦ .

(٥٠) نفسه / ٦٦ .

(٥١) ينظر اللغة في الأدب الحديث ، الحداثة والتجريب / جاكوب كورك / ترجمة ليون يوسف وعزيز عما نوئيل / دار المأمون للترجمة والنشر / بغداد / ١٩٨٩ / ١٦٩ .

(٥٢) ينظر السيميائية وفلسفة اللغة / أمبرتو إيكو / ترجمة د أحمد الصمعي / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط١ / ٢٠٠٥ / ٥٨ .

(٥٣) ينظر علم اللغة العام / ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٥٤) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار/ أحمد يوسف / ١٦. .

(٥٥) نفسه / ١٥ .

(٥٦) دلائل الإعجاز / مقدمة الكتاب / ٧ .

(٥٧) ينظر نفسه /٧٢ـ٧٣ .

(٥٨) ينظر نفسه / ٧٤ .

(٥٩) نفسه / ٨٧ .

(٦٠)نفسه / ٧١

(٦١) نفسه / ٨٧ .

(٦٢) علم اللغة السيميائي والأدب المروي / وليم أو . هاندرك/ ترجمة د نوزاد حسن أحمد ، ويؤيل يوسف عزيز / الدار العربية للموسوعات . بيروت / ط١ / ٢٠١٠ / ١٢ .

(٦٣) ينظر نفسه / ١٣ .

(٦٤) ينظر نفسه / ١٥ ـ١٦ .

(٦٥) ينظر دلائل الإعجاز /١٠٦.

(٦٦) نفسه / ١٠٧ .

(٦٧) نفسه / ٨١ .

(٦٨) ينظر البنيوية / جان بياجه / ترجمة : عارف منيمنه وبشير أوبري / منشورات عويدات / بيروت ـ ط٤ / ١٩٨٥ / ٦٤ .

(٦٩) دلائل الإعجاز / ٤١ .

(٧٠) نفسه / ٣٧٠

(٧١) نفسه / ٤٥ .

(٧٢) نفسه / ٤٦.

(٧٣) ينظر سيميائيات التواصل وفعالية الحوار/ أحمد يوسف / ٣٦ .

(٧٤) ينظر محاضرات في السيميولوجيا/ محمد السرغيني / الدار البيضاء، دار الثقافة/ ١٩٨٧ /٧٣.

(٧٥) دلائل الإعجاز /٦٤.

(٧٦) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار / أحمد يوسف/١٤٣.

(٧٧) دلائل الإعجاز / ٣٧٤ .

(٧٨)

(٧٩) دلائل الإعجاز / ٣٧١ .

(٨٠) نفسه / ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

(٨١) ينظر علم اللغة العام / ٣٧ ـ ٣٨ .

(٨٢) دلائل الإعجاز/ ٤٦ .

(٨٣) ينظر قضايا الشعرية / رومان ياكوبسن / دار توبقال للنشر ـ الدار البيضاء / ١٩٨٨ /٢٧ و ٣٣ .
و ينظر أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب / رومان ياكوبسون / ترجمة فالح صدام الأمارة ود عبد الجبار محمد علي ـ مراجعة د مرتضى باقر / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٠ / ١٢٤ ـ ١٢٨ .

(٨٤) دلائل الإعجاز/ ٧٠ .

(٨٥) ينظر أقنعة النص/ سعيد الغانمي / دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد ـ ط١ / ١٩٩١/٣٥ ـ ٣٦.

(٨٦) ينظر رولان بارت ، مغامرة في مواجهة النص / فرانك إيفرار وأريك تينه / ترجمة وائل بركات / دار الينابيع / دمشق ـ ط١ / ٢٠٠٠ / ١٤١ ـ١٤٢ .

(٨٧) ينظر أسس السيميائية / دانيال تشاندلر / ترجمة د طلال وهبة / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت ـ ط١ / ٢٠٠٨ / ١٠٩ ـــ ١١٤ .

(٨٨) ينظر السيميائية ، الأصول ، القواعد

، والتاريخ / آن إينو و ميشال آريفيه و لوي بانييه ومجموعة أخرى / ترجمة رشيد بن مالك ومراجعة عز الدين المناصرة / دار مجدولاي للنشر والتوزيع / عمّان / ٢٠٠٨ / ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٨٩) دلائل الإعجاز/ ١٠٧ .

(٩٠) ينظر / ١٠٩ .

(٩١) ينظرسيميائيات التواصل وفعالية الحوار / أحمد يوسف /١٤١.

(٩٢) نفسه / ١٤٩ .